الجزء ١٢ المجلد ٩

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : كانون الاول سنة ١٩٢٩ م الموافق رجب سنة ١٣٤٨ هـ

بشار بن برد(١)

لما قامت الدولة العباسية على أثر سقوط الدولة الأموية اخذت الحضارة العربية شكلاً غير شكلها الاول : فالأوضاع الادارية تبدلت . والنزعات العقلية تغيرت . ودائرة العلم والفن والترف انفسحت وتوسعت . وقد دعا كل هذا الى ظهور نهضة جديدة في الشعر والأدب فاقت ما تقدمها من النهضات . واتفقت كلمة كتّاب تاريخ الآداب العربية على ان حامل لواء الشعر في صدر الدولة العباسية هو (بشار بن برد) .

ولكن أتظنون ان بشاراً يرضى بهذا ؟؟ فهو يزعم انه لو كان في عهد الجاهلية لبذّ فحولها . وأبرّ على شعرائها : فما أثر عنه انه قال (أزري بشعري الأذان) . كنى بالأذان عن الاسلام لأنه من أعظم شعائره . يريد ان ظهور الاسلام بقرآنه وبلاغة آياته غطّى عليه . وحال دون شهرته . والا فلو كان في زمن الجاهلية وقبل نزول القرآن لكان له شأن غير هذا الشأن .

(نسب بشار ونشأته) : يرد ابو بشار فارسي الاصل من بلاد طخارستان ويظهر من قول جغرافيي العرب وجعلهم كابل من ثغور طخارستان أن طخارستان هي بلاد الافغان او انها كورة كبيرة منها . جاء يرد البصرة في جملة سبي المهلب بن ابي صفرة فأهدته امرأة المهلب الى صديقة لها من بني عُقَيل . فأعتقته العقيلية . وتزوج يرد . فوُلد له بشار . فكان

(١) محاضرة القاها الاستاذ «المغربي» في ردهة المجمع بتاريخ ٣٠ ايار سنة ١٩٢٤ م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بشار مولىً ولم يكن عربياً . ونشأ في بني عُقيل الأعراب الاقحاح فاستحكمت فيه ملكة اللغة العربية الفصيحة .

ولد بشار في أخريات ايام دولة الأمويين اي في حدود المئة للهجرة . ولما قام العباسيون كان في طور الشباب فهو من مخضرمي الدولتين اي انه عاش في زمنيهما . لكن اشتهاره بالشعر انما وقع في عهد المنصور العباسي . ثم في زمن ابنه المهدي . وقتله المهدي سنة مئةٍ وثمان وستين للهجرة للأسباب الآتي ذكرها — بعد ان عاش سبعين ونيفاً من العمر . وكان ضخم الجثة طويلاً آدم اللون مجدوراً عظيم الخَلق والوجه وقد ولد أعمى وكانت حدقتاه جاحظتين (اي ناتئتين) وقد تغشاهما لحم احمر . فكان أقبح العميان عمىً . وأفظعهم منظراً . وما أقرب الشبه وأبعده بين بشار وابي العلاء المعري : الشبه بينهما قريب من حيث ان كلاً منهما ولد أعمى او عمي بالجدري وهو صغير . ثم لما تعلقا بالأدب والشعر ساعدهما عمى عين البصر على انفتاح عين البصيرة . فانصرفت مخيلتهما بكليتها الى سمو التصور الفكري . والإبداع في التخيل الشعري . حتى بلغا في ذلك مبلغاً يحط عنه السيل . ولا يرقى اليه الطير . وقد تشابها ايضاً من حيث انطلاق فكرهما . مما تفيد به غيرهما : فذهبا في التصريح فيما يعتقدانه كل مذهب . ومن جراء ذلك رُميا بالكفر ونسبا الى الزندقة .

هذا وجه التشابه بينهما اما وجه التباين والتخالف فظاهر في أن بشاراً كان فارسي النجار . اما ابو العلاء فكان عربياً قحّاً . وكانت فلسفة بشار فلسفةً مادية باطلة . حاشا فلسفة ابي العلاء فان فلسفته روحيةٌ فاضلة . وكان معظم شعر بشار فيما يثير الشهوة ويهون أمر الرذيلة . بينما كان ابو العلاء شريف النفس عفيفاً موفور الكرامة . ومعظم شعره فيما يثير حب العمل الصالح في النفس ويحض على ممارسة الخير والفضيلة والتأمل في أسرار الكون ونواميس الاجتماع .

كان يرد والد بشار طياناً حاذقاً بالتطيين . فلما ولد له بشار كان يقول ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه . ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . ثم قال بشار الشعرَ وهو صغير في حياة ابيه . فكان اذا هجا قوماً جاؤا أباه وشكوه اليه فيضربه ضرباً مبرحاً . فكانت أمه تقول له : الى كم تضرب هذا الصغير ؟ اما ترحمه ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيقول بلى والله ولكنه يتعرض للناس فيشكونه اليّ . فسمعه بشار يوماً يقول هذاالقول لأمه فهتف به : يا أبتِ ! ان هـذا الذي يشكونه مني اليك هو قول الشعر . واني ان ألممتُ به أغنيتك وسائر اهلي . فان شكوني اليك بعدالآن قل لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) . فلماعادوا وشكوه قال لهم برد : أليس الله يقول : (ليس على الاعمى حرج) فانصرفوا وهم يقولون « تالله لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار » .

من هذه الساعة . من حضن العائلة . من بين ذراعي الأب والأم اختط بشار لنفسه خطة التهجم على الاعراض توسلاً الى الكسب واغناء اهله .

وطريقته هذه هي نفس طريقة (الحطيئة) الشاعر الجاهلي من حيث ان كلاً منهما اتخذ الهجوَ وهتكَ أعراض الناس وتهديدهم باذاعة أسرارهم — طريقاً الى جر مغنم . اودفع مغرم . وهذه الطريقة هي مايسميه أدباء الافرنج (شانتاج) ويظهر ان في شعرائهم كثيرين مشوا على هذه الطريقة الملعونة .

وقد عرف بشار وهو صغير جريراً الشاعر وسمع شعره . فهاج في نفسه الشاعرية وحبب اليه الاشتهار بالشعر . وارتأى ان ينال هذه الشهرة على حساب جرير . وحاول ان يهجوه فيردّ عليه جرير . فيشيعَ ذكره . ويعظم امره . لكن جريراً أعرض عنه . استخفافاً به . قال بشار : (ولو هاجاني لكنت أشعر الناس)

وكان لبشار أخوان قصابان وهما (بشر و بشير) فكانا يستعيران ثياب اخيهما الاعمى بشار ويلبسانها في مهنتهما . فتتسخ وتتن ريحهـا . وكان هو باراً بهما . صبوراً على أذاهما . وفي آخر الامر اتخذ لنفسه ثياباً خاصة . وحلف ان لا يعيرهم اياها . فكانوا يأخذونهـا بغير اذنه ويلبسونها . فكان اذا أعياه الامر لبسها وخرج الى الناس بها على تتنها ووساختهـا . فيقال له ماهذا يا أبا معاذ ؟ (وهي كنيته) . فكان يقول لهم « هذه ثمرة صلة الرحم !!! » .

(اخلاقه واطواره) : كان بشار كثير التلوّن لاثبات له ولاسيما في امر نسبه وعروبته وشعوبيته : فهو تارةً يفتخر بولائه للعرب . وطوراً يتبرأ منهم ويتعصب للعجم . وآونةً يتبرم بالفريقين . ولسان حاله ينشد قول زميله ابي العلاء المعري الذي قال بعد التجربة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(لعمري لقد جرّبتُ عجماً كثيرة وعرباً : فلا عجماً حمدت ولا عربا)

وكان من أشد الناس تبرماً بالناس . وكان يحمد الله على العمى . فيقال له ولما ذا يا أبا معاذ ؟ فيقول لئلا ارى الثقلاء . وكان اذا اراد ان ينشد شعراً صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب .

اما مذهبه الفلسفي الذي كان السبب في تهمته بالزندقة فهو ملخص في هذه الجملة التي كان يقولها « انا لا أعرف الا ما عاينته . او عاينت مثله » فالرجل على ما يظهر من كلمته هذه كان مادياً لا يعرف الا المادة . والمدركات المحسوسة . فمذهبه هذا يقرب من المذهب الفلسفي الحديث وهو مذهب الحاسيين او التجريبيين . ومؤسسا هذا المذهب باكون و ديكارت . وقد يكون الذي حمل بشاراً على هذا المذهب غلوّ المتنطعين من الجلجلوتيين والحشويين . وشدّ ما كان هؤلاء الحشويون الذين يكذبون على الدين سبباً في تبرم العقلاء . وسوء ظن الفضلاء : مر بشار بقاصّ من هؤلاء الحشوية يقص في المسجد فسمعه يقول : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة : صحنه الفُ فرسخ في الف فرسخ . وعلوه الفُ فرسخ . وكل باب من ابوابه عشرة فراسخ في مثلها . فالتفت بشارٌ الى قائده وقال : (بئست والله هذه الدار في شهر كانون الثاني) يعني انها لفرط سعتها لا تدفأ . فبسبب هذه الحكاية قد يتهمون بشاراً انه ينكر وجود الجنة . والحق انه انما ينكر على هؤلاء القصاص الحماقات التي يبرأ الاسلام منها .

و يشبه هذا ان بشاراً كان ينتظر يوماً الاذن على المهدي والمهدي في مجلس الخلافة وكان مع بشار في الانتظار آخرون وبينهم مولى من موالي المهدي المتملقين اسمه (المعلّى ابن طريف) فسأل المعلى عن معنى تفسير قوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) الى قوله (يخرج من بطونها شراب) — ما هو النحل ؟ وما هو الشراب ؟ فسكت الحاضرون لكن بشاراً لا يهاب احداً فأجابه : النحل معروف والشراب هو العسل . قال هيهات : النحل بنو هاشم والشراب الذي يخرج من بطونهم هو العلم هو العلم . فلم يطق بشار صبراً فقال له : « جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم » فغضب الرجل وضج الحاضرون وبلغ الخبر الخليفة المهدي فدعا بهما وأعاد عليه القصة فضحك . والتفت الى الرجل وقال له حقاً انك بارد غث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان ينشد المهدي يوماً وفي المجلس خال المهدي يزيد بن منصور الحميري فلما فرغ بشار أقبل عليه يزيد وسأله (ياشيخ ماصناعتك ؟) قال أثقب اللؤلؤ . فضحك القوم فقال المهدي و يلك أتتنادر على خالي ؟ قال وما اصنع يا امير المؤمنين ! يراني شيخاً اعمى انشد الخليفة شعراً فما عسى تكون صنعتي سوى الشعر .

فغباوة هؤلاء الاغبياء جعلته يتفلت بكلمات حسبوها عليه زندقة . ورب زندقة انتجتها مخرقة .

(فضله وفصاحته وتمكنه من اللغة العربية) : قال الجاحظ في (البيان والتبيين) « بشار من المطبوعين اصحاب الابداع والاختراع المتقنين في الشعر الآخذين في اكثر اجناسه وضروبه » . وقال نجم ابن النطاح « عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة الا وهو يروي من شعر بشار . ولا نائح ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب بشعره . ولا ذو شرف الا وهو يهابه . ويخاف معرة لسانه » . وقال المبارك لبشار « ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وفيه المستكره المشكوك فيه من الالفاظ سوى شعرك » قال : ومن اين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل . وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح . ثم أيفعت فأبديت (اي دخلت البادية) الى ان ادركت . فمن اين يأتيني الخطأ ؟

قال بعضهم : سألت ابا عبيدة عن السبب الذي من اجله شدد المهدي في نهي بشار عن شعر الغزل والنسيب قال : كان اول ذلك افتتان نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال القاضي سوار ومالك ابن دينار : ما شيء ادعى لاهل البصرة الى الفسق من اشعار هذا الاعمى .

وكان واصل بن عطاء يقول : ان من اخدع حبائل الشيطان واغواها كلمات هذا الاعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره الى المهدي من عدة جهات نهاه المهدي عن الغزل والتشبيب . وكان المهدي شديد الغيرة . قال : فقلت لابي عبيدة : ولكن ماالحسب ان شعر بشار أبلغ في التشبيب والغزل من شعر عشاق العرب : (عروة بن حزام) و (مجنون ليلى) و (كثير عزة) و (جميل بثينة) — قال : ليس كل من يسمع أشعار هؤلاء يفهم المراد منها . اما بشار فيقارب النساء . حتى لايخفى عليهن ما يقول في شعره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واي حرة حصان تسمع قول بشار ولا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة العزلة . والفتاة الطُلَعة . ثم انشده ابو عبيدة قصيدة بشار التي قال فيها :

(قولي لها بقـة لها ظفر ان كان في البق ما لها ظفر)

أما تمكن بشار من العربية فذكروا له شواهد : منها انه كان له صديق اسمه (دَيْسم العنزي) فبلغ بشاراً ان ديستماً هذا يروي شعراً لخصوم بشار في هجوه فغضب وقال :

(أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع أتروي هجائي سادراً غير مقصر)

سئل ابو زيد الانصاري عن معنى هذا البيت ؟ فسألهم وان هو ؟ قالوا لبشار . قال : قاتله الله ما اعلمه بكلام العرب ! ثم فسره لهم فقال (ديسم) اسم الرجل صديق بشار وهو في اصل اللغة اسم لولد الذئب من الكلبة . كما ان (العِسبار) ولد الضبع من الذئب و (السِمع) ولد الذئب من الضبع . فقول بشار لصاحبه (أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع) هو بمنزلة قوله له : اسمك ديسم وليس الديسم سوى ولد الذئب من الكلبة . فأبوك ذئب وأمك كلبة . وقوله من نجل زارع . اي من نجل الكلاب . والعرب تسمي الكلاب (اولادزارع) لماذا ؟ لانهم يلقون اقذارهم في الطرقات و يزرعونها هنا وهناك .

ومن الشواهد على دقة نظر بشار في الشعر وشدة نقده له انه لما انشد مناظره في الشهرة الشعرية : مروان ابن ابي حفصة قوله :

(واذا قلت لها جودي لنـا خرجت بالصمت عن لا ونعم)

قال له مروان : (هلا قلت « خرست بالصمت » مكان خرجت بالصمت) فقال له بشار (إذن انا في عقلك ! ! فض الله فاك ! ! أأتطيَّر على من أحب بالخَرَس) ؟؟

وكان بشار يجذب قلوب الناس اليه فكانوا يترددون الى مجلسه لمشاهدة خلقته وسماع شعره . وحسن نادرته . فكان في كل امره معجباً . وكان النساء المتظرفات يدخلن عليه في الاسبوع مرتين فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره ويطارحنه النوادر . قالت له احداهن مرة (اي رجل انت لو كنت اسود اللحية والرأس) قال : (لو علمتِ ان بيض البُزاة أثمن من سود الغربان) قالت (أما قولك فحسن في السمع . ومن لك بان يحسن شيبك في العين . كما حسن قولك في السمع) فكان بشار يعيد قولها ويتعجب من حسنه . ويقول انه لم يفحمه في حياته غيرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(كثرة شعره) : قلنا ان بشاراً نظم الشعر وهو ابن عشر سنين ثم عاش زهاء الثمانين سنة . فكم نظم في مدة السبعين او الستين سنة من القصائد والمقطعات ؟ افتخر مرة بان له اثني عشر الف بيت جيد . فاستبعدوا ذلك واستكثروه . فقال اني نظمت اثنتي عشر الف قصيدة . ألا يوجد في كل قصيدة منها بيت جيد ؟ فهو ولا ريب من اكثر الشعراء شعراً . لكن لم يبق من شعره سوى القصائد البزرة . والقطع المتفرقة . في ثنايا كتب الادب ومجاميع الشعر . وقال مؤرخو أدب العرب انه ليس لبشار ديوان مجموع وعللوا ضياع شعره بما تضمنه من السب والقذع والطعن في الاعراض واوصاف النساء والاقوال الغزلة التي تفسد نفوسهن وتحبب اليهن الرذيلة مما حمل صلحاء عصره وخاصة الحسن البصري ومالك بن دينار وواصل بن عطاء على التشنيع عليه وشكوه المرة بعد المرة الى الخليفة المهدي ووزيره (يعقوب بن داود) فصدر امر الخليفة بنهيه عن ذكر النساء والشعر الغزل المفسد للاخلاق والضار بالآداب العمومية كما نقول في اصطلاحات هذه الايام . وربما صادرت الشرطة الاوراق والدفاتر التي فيها شعره من ايدي الناس ومُنع المغنون في المحافل العامة والاسواق عن التغني بشعره . كما يفعل ولاة الامور اليوم في مصادرة الكتب البذيئة والتصاوير الماجنة والمقالات المهيجة .

ومما ساعد على ضياع شعره ان بشاراً في آرائه السياسية لم يكن موالياً للدولة الجديدة الناهضة أعني الدولة العباسية حتى أدى الامر الى قتله كما سيجيء . فلم يكن احد من الوراقين أو النساخين يجرأ على جمع شعره في ديوان . هذا ماقاله مؤرخو الآداب العربية في سبب اضمحلال أشعار بشار .

اما ما يعلمه مجمعنا العلمي من هذا القبيل فهو ان السيد منيب الناطور احد أدباء بيروت كان سعى منذ بضعة عشر سنة في جمع ديوان لبشار وكان يلتقط أشعاره ويبحث عنها في مختلف الأقطار حتى انه استنجد برصيفنا الاستاذ (المعلوف) فاستنسخ له طائفة من شعر بشار وقصائده من بلاد الروسية . ثم لم نعلم اي مانع منع السيد منيب الموما اليه من انجاز طبع تلك الاشعار ونشرها . ما لنا ولهذا فان لدى المجمع العلمي من خبر بشار ماهو اقرب واطرب : ذلك ان صديق المجمع الأبر (احمد تيمور باشا) كتب الى المجمع ان المؤرخ التونسي الشهير واحد اعضاء مجمعنا (الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب) قد عثر في تونس على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ديوان بشار . وانهم شارعون في طبعه . لكن لاندري ان كان هذا الديوان قد جمع في القرون الاولى . او مما جمعه المتأخرون من أشعار بشار المبعثرة في كتب الأدب على نمط مافعله (السيد منيب الناطور) .

(عيون أشعار بشار) : لا يُذكر بشار الا ويُذكر معه على الفور بيته المشهور :

(كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه)

وموضع النكتة في هذا البيت ان قائله قد عمي في بطن أمه لكنه اهتدى من حسن التشبيه في هذا البيت الى ما لم يهتد اليه البصراء .

ومن مشهور قوله في المديح :

(لمستُ بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي)

(فلا انا منه ما افاد ذوو الغني أفدتُ وأعداني فأفنيت ماعندي)

وقوله (اذا دهمتك عظام الامور فنبه لها عمراً ثم نم)

وقوله (يا واحد العرب الذي امسى وليس له نظير)

(لو كان مثلك آخراً ما كان في الدنيا فقير)

وقوله في خالد بن برمك جد البرامكة :

(أخالد ان الحمد يبقى لأهله جمالاً . ولا تبقى الكنوز على الكد)

(فأطعم وكُل من عارة مستردةٍ ولا تبقها : ان العواريَ للرد)

وقد أعجب خالد بهذين البيتين حتى امر بان يكتبا ويعلقا في صدر مجلسه كما نفعل اليوم من تعليق الأشعار على جدران بيوتنا . وقال ابنه يحيى البرمكي : آخر ماوصاني به ابي العمل بهذين البيتين . إذن الشهرة العظيمة التي نالها البرامكة في الكرم والجود كان لبشار وشعره يد فيها . ومن مشهور قوله في الفخر :

(اذا الملك الجبّار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

وأشهر من هذا قوله :

(اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس اوقطرت دما)

(إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ ذرى منبر صلى علينا وسلما)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال له بعض اصدقائه يوماً : يابامعاذ بينا تقول مثل هذا الشعر الذي يخلع القلوب نسمعك تعود فتقول :

(ربابة ربة البيت نصب الخل في الزيت)
(لها عشر دُجاجات ودبك حسن الصوت)

فما هذا التفاوت في شعرك يابشار ؟ فأجابه : لكل وجهٌ وموضع ياأخي : فان قولي (اذا ما غضبنا غضبة مضرية) في موضع جد . وقولي (ربابة ربة البيت الخ) قصدت به الهزل مع جارية لي ربابة : انا لاآكل البيض من السوق . فأمدح ربابة لتعتني بالدجاجات وآكل بيضاً طرياً . والشعر الذي قلته في ربابة هو في نفسها أبلغ من (قفا نبك) في نفسك .

وما اعتذر به بشار عن نفسه يُعتذر به عن كثيرين من فحول الشعراء الذين يعزى اليهم شيء من الشعر الساقط : فانهم قد يكونون قالوه لمناسبة مثل مناسبة ربابة .

ومن قوله في الفخر ايضاً :

(يريدون مسعاتي ودون لقائها قناديل أبواب السماوات تزهر)

وقد سمى في هذا الشعر نجوم السماء بالقناديل .

ومن مشهور شعره في الغزل والنسيب البيت الذي حكم مؤرخو آدابنا العربية انه أغزل شعر قاله المحدثون وهو :

(انا والله اشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق)

ومن أغزاله (يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والاذن تعشق قبل العين احيانا)

وقوله (هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني اليك فان الحب أقصاني)

وقوله (لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألمّ)
(رفهي يا عبدُ عني واعلمي انني يا عبدُ من لحم ودمّ)

(عبدُ) مرخم (عبدةُ) وهي امرأة كان بشار يتغزل بها . و يغلطون فينسبون هذه الابيات الى عنترة العبسي و يجعلون مكان يا عبد ياعبل .

وقوله (اذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران)

وقوله (حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وكأن رجع حديثها قطع الرياض كُسين زهرا)
(وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا)

وقوله (وما كلمني دارها اذ سألتها وفي كبدي كالنفط شبت به النار)

النفط كاز البترول وقد ضرب به مثلاً لشدة الاحراق .

واستأذن على المهدي فأذن له بشرط ان لا ينشده غزلاً فدخل وأنشد :

(يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته)
(بعثت اليّ تسومني بُردالشباب وقدطويته)
(ويشوقني بيت الحبيـ ـب اذا ادّكرت واين بيته)
(حالـ الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته)
(ونهاني الملك الهما م عن النساء وما عصيته)
(إن الخليفة قد ابى واذا ابى شيئاً أبيته)

هذا مبلغ شعر بشار من التخنث والغنج في حال نوبته وإنابته . فكيف يكون مبلغه في حالة لهوه وخلوته . لاجرم انه يحق للمهدي ان يقطع من إصلاحه الأمل . ثم يطرحه ويتربص به العلل . وقد فعل .

بشار في زمنه كان كجريدة حية من جرائد هذه الايام لكنها خصصت صفحتها الاولى للغزل والتشبيب وذكر النساء . وصفحتها الثانية للهجو والقذع والنيل من الاعراض . وصفحتها الثالثة للفخر والتمجد والمطاولة . اما صفحتها الرابعة وهي صفحة الاعلانات فقد خصها بذكر شيء من الحكم والمواعظ والأمثال : من ذلك أبياته البليغة في الحض على الاستشارة التي يقول في أولها

(اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأيٍ نصيح او نصاحة حازم)

وقد بلغت هذه الابيات من الشهرة مبلغاً أصبح إنشادها معه مما يبعث على الملل والضجر . وقد رزقت هذه القطعة حظها من الشهرة وإعجاب الناس بها في كل زمان حتى في زمن بشار نفسه . قال الأصمعي قلت لبشار ان الناس يعجبون من ابياتك في المشورة فأجابه هذا الجواب البديع : « يا اباسعيد ان المشاور بين امرين : بين صواب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يفوز بثمرته . او خطأ يشارك في مكروهه » قال الاصمعي فقلت « انت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك »

ومن الحكم قوله (اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه)
(اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت : واي الناس تصفو مشاربه)

ومنها قوله (وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوما : فان الحزم ليس بنائم)
(وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شبا السيف خير من قبول المظالم)

ومنها قوله (ان الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود)
(يُثني النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سدّ فقراً فهو محمود)

ومنها قوله (خليليّ ان المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق)
(وكنتُ اذا ضاقت عليّ محلة تيممت أخرى ما عليّ تضيق)
(وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى او في المحامد سوق)
(ولا خاب فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق)
(وما كنتُ الا كالزمان : فان صحا صحوتُ وان ماق الزمان اموق)

(ماق) يعني (حمق) .

ومن أمثاله (أعمى يقود بصيراً لا ابا لكمو قد ضل من كانت العميان تهديه)
ومنها (وكان كالعير : غدا طالباً قرناً فلم يرجع باذنين)
ومنها (يسقط الطير حيث يلتقط الحـ ـبّ وتغشى منازل الكرماء)

ومن مبالغاته الشعرية

(في حلتي جسم فتىً ناحل لو هبت الريح به طاحا)

يقول ان الريح لو هبت عليه حملته والقت به الى بعيد وذلك لنحول جسمه . فقال له احد اصدقائه « يا ابن الفاعلة أتقول هذا وانت كالفيل عرضك أثقل من طولك !! » وقد مر في صفة بشار انه كان ضخم الجثة طويلاً . ومن شعره قوله في العذال

(ما ذا عليهم ومالهم خرسوا لو انهم في عيوبهم نظروا)
(اعشق وحدي ويؤخذون به كالترك تغزو فتؤخذ الخزر)

يقول انه هو يعشق وعذاله ينغصون عيشهم ويضرون انفسهم كالترك يعيثون فساداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الارض ولا يقدر احد عليهم ولكن يُقبض على جيرانهم الخزر المساكين ويعاقبون .

(ماقاله نقاد الشعر في نقد شعر بشار) : شاعر مثل بشار نظم (١٢) الف قصيدة لا يمكن ان تكون كلها في مستوىً واحد من الجودة والحسن — وهذا المتنبي وابو تمام والبحتري لا يخلو شعرهم من الساقط الرذل . والمعنى المبتذل . وكان اسحق الموصلي يزري ببشار ولا يعتد بشعره . و يقول هو كثير التخليط . وان اشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً . أليس هو القائل

(إنما عظمُ سليمى حبتي قصب السكر لاعظم الجمل)
(واذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل)

قال اسحق ولو قال بشار كل شعر جيد ثم أُضيف الى هذا الشعر لزينه . وتعلمون ان اسحق من ندماء الخلافة وجلسائها ولا يمكن ان يقول في عدوها غير هذا . والا فلعل السبب في انحطاط هذين البيتين انه قالها في سبب منحط كالبيتين اللذين قالها في جاريته (ربابة) : (ربابة ربة البيت الخ)

ومن قول بشار

(من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج)

انتقدوا هذا البيت بانه لم يبلغ في الحسن بيت (سلم الخاسر) وكان سلم اخذ هذا المعنى وسبكه في قالب من الشعر ابلغ من قول بشار حيث قال

(من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللذة الجسور)

ولما سمع بشار هذا البيت غضب على سلم (وكان سلم يتردد عليه و يأخذ عنه) وذلك لان بشاراً علم ان بيت سلم يسهل حفظه فيعلق بالأذهان ويميت بيته . وما زال بشار ناقماً من سلم واجداً عليه حتى تدخل اصدقاؤهما فأصلحوا بينهما .

ومن شعر بشار قوله يهدد الخليفة المنصور العباسي في القصيدة الميمية المشهورة

(ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمت نزر الجرائم)

يقول للمنصور لا تكن جباراً فان مروان الحمار (آخر ملوك بني أمية) هلك وجرائمه بالنسبة لجرائمك قليلة . قال نقاد شعره ان بشاراً قصّر جداً في سبك هذا المعنى والنابغة الجعدي أبرّ عليه في سبكه واحسن كل الاحسان مذ قال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(كليب لعمري كان اكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرّج بالدم)

وبينا كان صلحاء الامة (الحسن البصري وواصل بن عطاء ومالك بن دينار) يطاردون بشاراً و ينكرون عليه الزندقة والخلاعة . كان أئمة النحاة (الاخفش وسيبو يه و يونس) يناقشونه الحساب على اغلاطه اللغو ية . وهي في الحق قليلة جداً : من ذلك قوله في صفة السفينة

(تلاعب نينان البحار وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجري)

يقول : ان حيتان البحر كانت تلاعب السفينة وتجمّشها وهي تسير في عباب اليم . فعاب عليه سيبو يه كلمة (النينان) جمع نون وهو الحوت وقال ان (النون) بمعنى الحوت لايجمع على (نينان) وانما على (انوان) . فكبرالامر على بشار وتهدد سيبو يه بالهجو . فخاف سيبو يه وقيل انه بكى ودخل القوم بينهم فأرضوا بشاراً . وصار سيبو يه من يومئذ يستشهد بشعره في دروسه النحو ية . تطييباً لقلبه واستكفاءً لشره . فرضي بشار ولكنه مع هذا غير الكلمة فقال (تلاعب تيّار البحار) بدل (تلاعب نينان البحار) . لكن كتب اللغة تذكر كلمة (نينان) في جمع نون : وكأنهم لم يبالوا اعتراض سيبو يه وحجتهم في ذلك قول سيدنا علي رضي الله عنه (يعلم سبحانه وتعالى النينان في البحار الغامرات) .

ومما آخذوا بشاراً به ايضاً قوله (غنني للغريض يا ابن قِنان !) فقالوا له من هذا : (ابن قنان) ؟ لا نعرفه في المغنين . فقال لهم (وما عليكم منه ؟ ألكم عليه دين او ثأر تطالبونه به) ؟ قالوا لا وانما نريد ان نعرفه . قال (هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي) فقالوا الى متى يبقى في البيت ؟ قال الى ان يموت . وما ذا يهمكم ؟

فنقاد شعره ذهبوا الى أنه لا يوجد في الدنيا مغنٍ اسمه (ابن قنان) وانما اختزعه بشار تلبيةً للقافية . ومثل ذلك ما روي عن بشار انه قال — وكان قد مات له حمار — رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له و يلك مالك متّ ؟ قال نعم : مررتَ بي يوم كذا وكذا على باب (الاصفهاني) فرأيت ثمة أتاناً عشقتها فمت . فقلتُ له: وهل قلت فيها شعراً ؟ قال نعم وانشدني

(سيدي خذلي أتاناً عند باب الاصفهاني)
(تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وبُغنج ودلال سل جسمي و براني)
(ولها خد اسيل مثل لون الشيقران)
(فيها مت ولو عش ت اذاً طال هواني)

فقال رجل من القوم يا اباً مُعاذ (وماالشيقران ؟) قال هي كلة غريبة في لغة الحمير فاذا لقيتم حماراً فاسألوه عنها ·

وهكذا كان لكل سؤال يوجه الى بشار جواب حاضر عنده · ونادرة مهيئة لديه · لكنه تورط يوماً مع احدرجال الصناعة والفن وهو (حمدان الخراط) وكان حمدان مصوراً حاذقاً في التصو ير والنقش والصياغة والنحت · كلفه بشار ان يصنع له جاماً فيه صور طيور ففعل وجاءه به (والجام في لغة الترك الزجاج · وفي لغة الفرس القدح · وعند العرب هو الكاس من فضة) · فقال له بشار ماهي الصورالتي على الجام قال صور طيور تطير · قال كان ينبغي ان تصور فوقها طائراً من الجوارح ينقض عليها · قال انك لم تقل لي ذلك · قال بلى ولكنك ظننت اني اعمى لااراها · ثم تهدده بالهجاء · وهناوقف (الشعر) ازاء (التصو ير) ووقف الفن ازاء الفن وجهاً لوجه · وكان حمدان الفنان سوداوي الطبع كأغلب المتخصصين · فقال لبشار ان هجوتني ندمت · قال اي شيء تقدر ان تصنع بي · قال أصورك عريان ووراءك قرد ··· وأعرضك مع الصور الاخرى على باب داري · فالتفت بشار الى القوم وقال: امزح معه وهو يأبى الا الجد · وهكذا غلب التصو ير الشعر: لان الشعر يريك الشيء خيالاً اما التصو ير فيريكه عياناً · ففي زمن العباسيين إذن كان المصورون يعرضون الصور على ابوابهم ومنها التصو ير المضحك (Caricature) ·

(البطش ببشار) : مر معنا في مطاوي الكلام السابق ان الخليفة (المهدي) لم يكن راضياً عن بشار ولاهو بالحسن الاعتقاد فيه وكان احياناً يقبله في مجلسه · ويسمع مديحه · لكنه ما كان يجيزه الجوائز التي يطمع فيها بشار · وقد ورث (المهدي) الكره لبشار من ابيه المنصور ؛ فان بشاراً كان مناوئاً للدولة العباسية من حين ظهورها وموالياً للعلويين من آل البيت وكان القائم من آل البيت يومئذ (ابراهيم بن عبدالله بن الحسن السبط) فانحاز بشار الى ابراهيم ومدحه بقصيدته الميمية المشهورة التي خاطب في مطلعها المنصور العباسي وقال

(أبا جعفر ماطول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلما ظفر المنصور بابراهيم العلوي وقتله خاف بشار على نفسه وحول القصيدة الى مدح المنصور وجعل الخطاب الاول في (ابي مسلم الخراساني) عدو المنصور فقال :

(ابا مسلم ماطول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم)

لكن هذا التلاعب ان قبله المنصور في الظاهر لم يقبله في الباطن ولا سيما الدلائل الكثيرة التي كانت تدل على ان بشاراً مقيم على ولائه لآل البيت . فلما تولى (المهدي) الخلافة أراد بشار التقرب اليه فاجتهد كثيراً فلم يفلح ثم استهتر بشار في هجاء الناس والتعرض للحرم . فكانوا يسعون فيه الى (المهدي) ويزينون له البطش به وانه ما دام حياً فهو آفة على أخلاق الشبان والشابات . وليس هذا فقط بل كانوا ينقلون اليه اخباراً من كفره وزندقته . من ذلك انه فضّل ابليس على آدم بتفضيله النار على التراب منذ قال (الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار)

كان يبلغ الخليفة كل ذلك فكان يُعرض عنه ويصبر عليه ثم لما يئس بشار من الخليفة تعرّض له بالهجو ثم لوزيره (يعقوب بن داود) . على مبداه الذي كان لقنه اباه : (ليس على الاعمى حرج) . وكان يعقوب على مذهب سيده في اطّراح بشار . والنفرة منه . حتى قال بشار في الوزير بيتيه المشهورين

(بني أُمية هبوا طال نومكموا ان الخليفة يعقوب بن داود)

(ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود)

وقد حقق المؤرخون ان المهدي من أطهر ملوك بني العباس نفساً واحسنهم سيرة . وخاف الوزير يعقوب ان يُكثر بشار من مثل هذا الشعر و يكرر الضرب على هذه النغمة فبادر الى الخليفة واخبره بهجو بشار له اي للمهدي نفسه . وانه قال فيه قولاً لا يمكن النطق به . واخيراً ألح عليه الخليفة . فأسمعه البيتين :

(خليفة يُرمى ... ويلعب الدبّوق والصولجان) الخ

فكاد ينشق الخليفة غيظاً . لكنه مع هذا كظم غيظه . واحترم حرية القول (كما نقول في اصطلاح عصرنا الحاضر) . ثم اتفق للخليفة ان انحدر في دجلة فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً وقت الضحى . فسأل ماالخبر ؟ قيل له (بشار يؤذن وهو سكران) فأمر باحضاره فأُحضر الى ظهر (الحراقة) اي السفينة وامر بجلده فجلد سبعين سوطاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان كلما ضُرب سوطاً قال (حسْ حسْ) وهي كلمة تقال عند لذع الوجع وحرق النار . فقال بعض الحاضرين انظر ياامير المؤمنين يقول (حسْ حسْ) ولا يقول (باسم الله) فقال له بشار (ويلك أأكلة تريد هي حتى اقول باسم الله) فقال آخر (ولما ذا لا تقول الحمد لله ؟؟) قال (أونعمة هي حتى أحمد الله عليها ؟) . ثم بعد الضرب تركوه في البطيحة مغمىً عليه وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة . فجاء اهله وحملوه الى البصرة . فلما علم اهلها خبره لم يبق شريف منهم الا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا . لكن لما مات ونعاه الناعون تباشرعامتهم . وهنأ بعضهم بعضاً بموته . وحمدوا الله . وتصدقوا . كل ذلك لما منُوا به من شرّه . وأذى لسانه . ولما خرجوا في جنازته لم يتبعها احد سوى أمة لبشار سوداء . سندية عجماء . فكانت تصيح وراءه (واسيداه واسيداه) .

ولم يكن هم للخليفة بعد موت بشار الا تفتيش منزله والبحث في اوراقه . فوجدوا طوماراً فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . اني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى الله عليه وسلم » .

فلما قرأ الخليفة قوله بكى وندم على قتله . وقال لاجزى الله يعقوب بن داود (يعني وزيره) خيراً فأنه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته .

لكن ان برأنا بشاراً من الزندقة بناءً على هذه الرواية . فلا يمكن ان نبرءه من تهمة القذع والفحش والسباب . وان قلنا ان اعداءه وضعوا على لسانه البيت والبيتين فبعد ان يضعوا عليه القصائد الطويلة التي شحنت بها كتب الأدب . وقد تضمنت من صفات النساء وأخبار الفسق والفساق ما يفسد كل أمة فشا فيها مثل هذا القول . وليس هذا فقط بل كان بشار أحياناً يذيع بين الشبان والشابات من شعره قواعد عامة يعلمهم فيها الخنا والفجور . من ذلك البيتان المشهوران اللذان بلغا المهدي وكانا هما فيما زعموا السبب الحقيقي في قتله .

ذكرنا هذا لكم ايها السادة لتعلموا ان المهدي لم يقدم على ما أقدم عليه من قتل بشار الا وهو على بينة من امره واستحقاقه للقتل .

(منزلة بشار بين الشعراء) : تبين لنا مما رويناه من شعر بشار وشهادة علماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الادب فيه ان الرجل كان متمكناً من اللغة العربية : فكان لا يستعمل في شعره من الفاظها وتراكيبها سوى الصحيح الفصيح .

هذا شعره من حيث الديباجة اللفظية . اما شعره من حيث المعاني . فهو كما قال ابو عبيدة : يقارب سامعيه حتى لا يخفى عليهم ما يقوله في شعره : يتناول المعنى البعيد فيختار له من الأساليب السهل العذب . ومن الألفاظ اللؤلؤ الرطب . ولذلك راج شعره بين العامة والنساء . كما كانت تستجيده طائفة الادباء والنبلاء . وهذه هي البلاغة كما عرفها بعضهم . وكان بشار ينوّع شعره ويتدرج فيه : فاذا داعب خادم بيته أسفّ الى حضيض الابتذال . ثم قال

(ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت)

واذا خاطب الملأ من ذوي الكبر والجبروت حلّق في سماء الخيال ثم قال

(اذا الملك الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

وهذه مزية من مزايا شعره فاق بها رصفاءه المعاصرين . واخذ راية الشعر دونهم باليمين .

اما اذا أريد المقارنة بين بشار وبين من تقدمه وتأخر عنه من شعراء العرب فيقال فيهم بوجه عام : ان شاعر كل وقت انما يصوغ قوله من قلوب اهل زمنه . وينحت معانيه من عقليتهم . ويقتبس مواضيع شعره من أحوال اجتماعهم . فدرجة شاعريته ارتقاء وانحطاطاً تابعة لحالة اهل زمنه ارتقاء وانحطاطاً : وانما نقول هذا في نوابغ شعراء كل زمان لا في الشعاريرو والمتشاعرين . فطبقة جرير ثم طبقة بشار ثم طبقة المتنبيء — وان سماهم علماء اللغة والادب مولدين ومحدثين لم يريدوا الحط منهم وانما ارادوا تحديد صلاحيتهم للاستشهاد بقولهم في المسائل اللغوية . اما من حيث الشاعرية . واتساع الخيال في المعاني . والتفنن في الاساليب والمباني . فلا ريب ان طبقة المتنبي وان تأخرت في الزمن متقدمة على طبقة بشار . وطبقة بشار متقدمة على طبقة جرير . وطبقة جرير متقدمة على طبقة امرء القيس — تبعاً لترتيب طبقات أزمنتهم في الحضارة والعلم واتساع الفكر وتأثير فنون الصناعة ومناحي الترف . اعتبر ذلك في قول ابن الرومي الذي سمع قول ابن المعتز الخليفة يصف الهلال فوقه سحابة سوداء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر)

فقال (ويلاه ومن اين لي في ماعون بيتي مثل هذا الزورق حتى أشبه الهلال به) . أشار بذلك الى ان أدوات الترف والزينة في البيت توحي الى الشاعر الذي يراها معاني لا تخطر ببال ذاك الذي لا يراها .

هذا في شاعرين عاشا في زمن واحد وبلد واحد فكيف بهما اذا تباعد الزمانان . واختلفت الحضارتان . ويمكن ان نستنتج من هذا ان شعراء زماننا الحاضر وشعراء العصور المقبلة هم بالطبع أشعر ممن تقدمهم اعتباراً بما ذكرنا ولأن شعرهم انما نحت من عقلية من يخاطبونهم . فلا جرم ان يكون شعرهم أشد تأثيراً في نفوس هؤلاء المخاطبين . ولا يخفى أن مقياس بلاغة الشعر انما هو التأثير .

«المغربي»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net